الاباء والبنون

رواية اجتماعية تمثيلية

لخائيل نعيمة

****

« الفصل الاول »

الاشخاص · ام الياس سماحه — ارملة بطرس بك سماحه

الياس سماحه — ابنها البكر

داود سلامه — معلم في مدرسة داخلية

زينة — اخت الياس

خليل — اخوها

ناصيف بك عركوش — شاعر

(غرفة في بيت سماحه ، فيها ديوان الى اليمين وآخر الى اليسار وبضعة كراسي بعضها مغطى بالحرير ، مبعثرة في اطراف الغرفة بدون ترتيب · في الوسط طاولة عليها قنديل بترول بغطاء احمر · عَلَى الحائط الشمالي صورة بطرس بك سماحه في برواز كبير مذهب · عَلَى بقية الحيطان اسلحة قديمة · سيفـان وبندقية وخنجران ورمح وسرج ، وصور قديسين وملائكة · في الحائط الايمن نافذة واسعة وتجاهها في الحائط الايسر باب · في حائط

الصدر باب آخر يؤدي الى الخارج · الفصل — صيف · النهار — احد · والوقت — عصر · الياس جالس الى الطاولة يكتب · امامه دواة ، حواليها كتب وجرائد واوراق مرمية بدون ترتيب · يسمع طرقاً عَلَى الباب)

الياس — من الطارق ؟ ادخل · (يتجه نحو الباب ويفتحه فيرى داود) اهلاً وسهلاً بصديقي القديس مارداود ! اجلس · اجلس · وليمنحنا الله بركة صلواتك ·

داود — (ناظراً الى الحيطان حواليه) ارى ان بيتكم متحف انتيكا ·

الياس — متحف انتيكا واي متحف ! لو كانت امي هنا الان لاخذتك بيدك وعرّفتك بكل قطعة عَلَى حدة · كلما جاء زائر جديد تقضي معه ساعة عَلَى الاقل امام تلك الصورة الكبيرة عَلَى الحائط — تلك صورة ابي · تقص عليه حياة زوجها من يوم ولادته الى ساعة موته · ثم تنتقل الى السيفين تحت الصورة وتخبره انهما سيفا المرحوم وانه ذبح بالاول عشرين درزياً وبالثاني عشرة متاولة وتريه اثر الدم عليهما · ثم تنتقل الى تلك البندقية وتخبره ان جدها سلبها من بعض رجال ابرهيم باشا · اما الرمح فله حكاية طويلة · امي تروي عنه ان خالها المرحوم شاهين بك لما كان ذاهباً مرة الى الموصل لشراء غنم — والمرحوم كان يتاجر بالغنم — هجمت عليه زمرة من الاكراد ولم يكن معه سوى هذا الخنجر (يشير الى خنجر عَلَى الحائط) فقتل من قتل منهم ومزق شمل الباقين · وكان زعيم المهاجمين من جملة من وقع قتيلاً في تلك المعركة · فاخذ خالها رمحه الذي تراه هنا وجواده ·

الجواد مات مع الايام · لكن سرجه بقي ؛ وهذا هو بعينه · ويل لمن يهزأ بهذه الاشياء امام امي — او بالحري يشك بقداستها — يصبح للحال من ألد اعدائها · اذكر ان مرة زارنا خوري · وبعد ان قصت عليه امي قصة الرمح تجاسر ان يشك في ان رجلاً واحداً ، لا سلاح معه سوى خنجر ، قدر ان ينازل زمرة من الاكراد المدججين بالسلاح ويفوز عليهم · ويا ليتك رأيت امي في تلك الساعة يا داود ! — لم ينقصها الا ان تأخذ بلحية ذاك الخوري المسكين وتضرب به عرض الحائط ، مع انها تعبد الخوارنة كعبادتها القديسين · انهالت عليه بوابل من التقريع والكلام المر ولم تترك له باباً للدفاع · فلم يصدق ذاك المسكين ان حانت له فرصة حتى خرج من البيت واطلق ساقيه للريح · ومن تلك الدقيقة لم نعد نرى له وجهاً · والان اذا احببت ان تثير غضب امي فاذكر لها اسم ذاك الخوري · وبالعكس — اذا كانت غاضبة واحببت ان تستعطف خاطرها فاسألها ان تقص لك شيئاً عن هذا السيف او ذاك الرمح او تلك الصورة الخ ·

داود — الافضل ان انطلق قبل ان تعود امك · ام هي هنا الان ؟

الياس — من حسن حظك ليست هنا · وقد خرجت بعد الغذاء للنزهة برفقة زينة · انت لا خوف عليك منها · لكن المصيبة عَلَى من كان مثلي · انت تعرف اني اكره القديم والجديد — لا بل اكره الحياة من اولها الى آخرها — وامي تزيدني كرهاً للحياة باطوارها الغريبة وبتعلقها بكل هذه الخرافات والترهات · لو فُقدت قطعة من هذه الآثار القديمة لفقدت امي

عقلها معها · لا بل لو غيرت ترتيب هذه القطع ولو قليلاً لنادت امي بالويل والثبور ، ولظنت ان العالم كله قد انقلب رأساً عَلَى عقب ، وان ساعة الدينونة الرهيبة قد حلّت · ولكن هذا ليس كل البلاء ، فامي علاوةً عَلَى ذلك سلطانة مطلقة مستبدة · اذا عارضها احد منا ولو في امرٍ تافه تبدأ تلعن حظها وتجادل الله الذي بلاها باولاد عقوقين مثلنا · لذلك لا يجسر احد منا عَلَى مقاومتها · انا لا اهتم لهذا الامر لان ايامي في هذه الدنيا معدودة · لكن قلبي يتفطر عَلَى فتاة كأختي زينة · هل رأيتها بعد ؟

داود — لا

الياس — فتاة قلما يوجد مثلها · لكنها قليلة الاختبار في امور الحياة · لا تزال تعد اكبر فضيلة الولد ان يطيع والديه طاعة عمياء ، لذلك تفعل كل ما تقوله امي · وتقبل دون تذمر بكل ما تجريه · هكذا — مثلاً — شاءت امي ان تعطيها لابن العركوش · لم تسألها اذا كانت ترضى به رفيقاً لحياتها ام لا · جاءها نصرالله عركوش — وهو بك كما لا يخفاك — وقال لها · « يا ام الياس · بدنا هاالمهرة لهاالمهر » فكان جواب ام الياس ان « المهرة وامها عَلَى حساب نصرالله بك » · وهكذا تم عقد خطبة زينة لابن العركوش · امي تغبط نفسها عَلَى حظ ابنتها — كما تقول · لانها هي ابنة بك وستتزوج بابن بك · ولان عريسها شاعر تسميه الجرائد « شيخ الشعراء » و « الشاعر المطبوع » و « الشاعر النابغة » · سألت زينة مرة اذا كانت تحبه فاجابتني · « و كيف اقدر ان لا احبه اذا كانت امي تأمرني ان احبه ؟ » فهل سمعت بعد

ببساطة كهذه البساطة ؟ هل تعرف ناصيف العركوش ؟ لا ؟ ألم يبتلك ربك بقراءة قصيدة من قصائده بعد ؟ لا ؟ والله اني احسدك عَلَى هذا الحظ أتحب ان تسمع هذه « الدرة الفريدة » التي تكرَّم عليَّ بها البارحة ؟ بالله عليك تدرع بالصبر واسمع · ظهرت هذه القصيدة في بعض جرائد بيروت تحت هذا العنوان · « قصيدة غرآء · نظم حضرة الشاعر العصري المطبوع والناثر البليغ المجيد سعادتلو ناصيف بك عركوش يرثي بها المأسوف عَلَى شبابه جداً ابن خالته ملحم افندي الدرعوني المتوفى حديثاً · وقد اوردناها بالحرف الواحد · نظراً لما فيها من المعجزات الشعرية والدرر الفكرية مما عودنا عليه قلم شاعرنا الكبير · قال حفظه الله—

عمَّ حزن في هذه الايام منه مادت اطراف ارض الشام
ما عهدنا من قبله بدر تم غاب في الترب طبق حكم الحمام
سلبتنا ايدي المنون كريماً ثابت العزم وابن خير الكرام
فغدا المجد بعده في اكتئاب وغدا العلم في ضنىً وسقام
ومنها كان بدراً لكن عراه خوف فغدونا من بعده في ظلام
بعده من ترى لفصل القضايا بعده من ترى لضرب الحسام
بعده من ترى لركب المطايا بعده من ترى لحل الخصام
ليت شعري كيف الكواكب تجري في سماها من بعد بدر التمام

داود — يكفي · يكفي ! قف · بحياتك قف !

الياس — دعني آتك عَلَى آخرها ·

داود — لا · لا · رحم الله اجدادك ! فقد اصابني دوران رأس ·

الياس — (يطرح الجريدة من يده باشمئزاز) وهذه « الجعدنة » يدعونها شعراً · وهذا « المجعدن» يدعونه شيخ الشعراء والشاعر المطبوع ! اذا كان قد اصابك دوران من ثمانية ابيات فماذا كنت تفعل لو كنت محلي يأتيك هذا البليد كل يوم بقصيدة ، يذكرك فيها بكل ما في هذا العالم من الشناعة والتصنع والخداع والاقذار الروحية ؟ لم أرَ وجهه السعيد اليوم بعد ، ولعله مشغول « بتنظيم عقد » قصيدة جديدة يأتيني بها عند المساء · انت لا تعرفه ، وانا احسدك من كل قلبي عَلَى ذلك · هذا « تيس مركب » · نعم · تيس مركب ! وهذا التيس المركب سيكون زوجاً لاختي عن قريب ، ولا حيلة في يدي لاقف في طريقه · لا شغل له الا ان يملأ رأسه عرقاً ثم يفرغه عَلَى الورق بحبر او قلم رصاص في هيئة قصيدة كهذه · واذا حدث ولم يهبط عليه « الوحي» لنظم الشعر يجلس وراء موائد القمار كل نهاره وليله · قد بذّر كل ثروة ابيه وهو الان يسعى ليبذر ثروة اختي · ولا غـاية له من الاقتران بها سوى الحصول عَلَى حصتها من ارزاقنا واموالنا وعَلَى الارزاق التي اوصى بها خالي بعد موته · والذي يجرحني اني اذا فهت لامي بكلمة عن ذلك تستشيط غضباً كأني جدّفت عَلَى مار بطرس او مريم العذراء · فهل تلومني بعد ذلك اذا كرهت هذه الحياة واحببت التخلص منها ؟ والله ليشق عليّ ان امشي عَلَى ارض يمشي عليها ناصيف العركوش وان ارى نفسي في عالم يحسب امثاله اناساً ويدعوهم « شعراء مطبوعين » وما هم سوى

تيوس مركبين · ماذا ترجو لشعب شيخ شعرائه ناصيف العركوش ؟ أتصدق اني احياناً اكره امي كذلك وجورها وادعاءها بما تعرف وبما لا تعرف ؟ اكره اختي ايضاً لعماوة قلبها وبساطتها واستسلامها · اكره اخي لانه ، كناصيف العركوش ، زائد في هذه الدنيا ، كالواو في « عمرو » · واذا كانت فيه فضيلة ما فهي انه لا ينظم الشعر كأبن العركوش · انا ابغض نفسي كذلك لاني لا ارى لي محلاً في هذه الحياة التي تجري حولي كامواج نهر — مدفوعة بقوة عمياء — لا تدري لماذا تجري ولا الى اين · وانا غريب واقف على الشاطىء انظر واضحك من هذه الالاف بل الملايين المتقلبة فوق امواج الحياة ظانة انها تسير الى ارض الميعاد وما هي الا سائرة الى لجة الفناء حيث لا يخضر امل ولا تنبت حياة ·

داود — هل كنت تقرأ شوبنهور في المدة الاخيرة ؟

الياس — قرأت شوبنهور فوجدته يترجم عن افكاري تماماً · شوبنهور لم يكشف لي شيئاً جديداً لكنه ثبت اعتقادي بما كشفته بنفسي من زمان · وما كشفه سليمان الحكيم من اجيال · باطل الاباطيل كل شيء باطل · قد كشفها كذلك من قال —

اشاب الصغير وافنى الكبير مرور الليالي وكر العشي
اذا ليلة هرمت يومها أتى بعد ذلك يوم فتي
نروح ونغدو لحاجاتنا وحاجات من عاش لا تنقضي

نعم · وحاجات من عاش لا تنقضي · واذا كانت حاجاتنا لا تنقضي

في هذه الدنيا فلماذا نعيش وندأب ونخزن ونبني ونعشق ونزوج ونتزوج عالمين ان الموت سيأتي عاجلاً او آجلاً ويجرفنا مع كل ما بنينا وخزنا وعشقنا الى هوة العدم · حقاً ان سليمان كان حكيماً · ولو عاش اليوم لكان يظفر ، ولا شك ، بجائزة نوبل · باطل الاباطيل كل شيء باطل !

داود — (باسماً) يضحكني منكم ايها الزاهدون في الحياة انكم تكرزون على سواكم بالتخلص من هذه الدنيا قبل الاوان وتحفظون لانفسكم الحق ان تكونوا من المتفرجين لا الممثلين ·

الياس—هل تعني اني انا خائف من الموت ؟ لا ، وحياة رأسك ! اسمع اذن · (يخرج ورقة من الطاولة ويقرأ) · بتاريخه نحن الواضعين اسماءنا ادناه قد تعهدنا ان نضع حداً لحياتنا بواسطة المشنقة قبل بزوغ شمس العاشر من شهر آب من السنة الحالية · وقد اخترنا لهذه الغاية السنديانة امام كنيسة مار يوحنا حيث تظهر جثثنا الهامدة عبرة للباقين وراءنا من المغشوشين بهذه الدنيا والمتعلقين باذيال هذه الحياة الفارغة · نحن نعتقد ان الحياة سخرية ولا نشاء ان نكون من ممثليها · نحن نعتقد اننا وجدنا في هذا العالم صدفةً بدون ارادتنا وبدون غاية معقولة ، وان حياتنا ابتدأت في الرحم وتنتهي بالموت · نحن لا نؤمن بوجود اله او قوة علوية عاقلة ولا نصدق بوجود حياة بعد القبر · وبما ان هذه الحياة القصيرة محاطة بالاحزان والاوصاب والاوجاع ، ولذاتها قليلة لا تدوم ، فقد حتمت علينا عقولنا ان نتخلص من هذا الوهم الذي ندعوه « الحياة » بالواسطة المذكورة اعلاه ·

وننصح لكل عاقل ان يحذو حذونا الامضاوات

الياس بطرس سماحه

خذ . برهن لي انك رجل وضع اسمك هنا . (يناوله الورقة)

داود — (يرد الورقة بهزء) ولماذا تطلب لك رفاقاً ؟ ألعلك تخاف ان تموت وحدك ؟ وهل كل الزاهدين جبناء مثلك ؟

الياس — اخاف ؟ انا اريد ان اخدمك خدمة صديق ، وان اخلصك من وهم لا تزال عيناك مطبقتين دونه — فهل تدعوني لذاك جباناً ؟

داود — وماذا تريدني ان ادعوك ؟ أأدعوك شجاعاً وانا اراك تنهزم من وجه اصغر الاعداء ؟ ألا ترى انك تبغض الحياة لان الحياة لا تقدم لك كل ما تشتهيه دون اقل عناء من جهتك ؟ ذاك لانك عشت الى الان ولم تدرك ان الحياة جهاد وان لذة البقآء في هذا الجهاد المستمر . وانك اذا شئت ان لا تكون حرفاً مهملاً في كتاب هذا العالم الواسع يجب ان لا تبقى من المتفرجين بل ان تدخل ميدان القتال مستعداً ان تقبل النصر والفشل سواء . وان لا تقنع بفوز قليل ولا تيأس من خيبة كبيرة . انت جبان لانك الى الان لم تجسر ان تخوض ساحة القتال . أبغضت الحياة لانك لا تعرفها فوقفت تتعجب كيف يعيش الناس ولماذا . وبدلاً من ان تبحث عن السبب الذي يحبب الى الناس الحياة ، مع كل ما فيها من الشقآء والتعس ، والاحزان والالام والشر ، وجدت ان اسهل الطرق ان تنبذ الحياة وتنبذ الناس الذين يحبون الحياة وتنادي بالانتحار العمومي . اوَليس ذاك جنوناً ؟ هل يخطر

لك ببال انك قادر ان تفني الحياة عن وجه الارض ؟ لنفرض انك اقنعت كل البشر ان ينتحروا في يوم معلوم وساعة معينة — فهل تمحق بذلك الحياة ؟ ماذا تفعل بالارض وحيواناتها وطيرها وحشراتها واسماكها ؟ ماذا تفعل بربوات المكروبات التي تملأ كل مغرز ابرة في الهواء حول الارض ؟ هي حية وتحمل جوهر الحياة . وبعد هذا كله — هل تظن انك بمحقك الحياة عَلَى هذه الارض تمحق الحياة من العالم كله ؟ وما انت وما هي هذه الكرة الصغيرة التي تمشي عَلَى ظهرها بالنسبة لما فوقك وما تحتك من العوالم السابحة في الفضاء التي لا تعرف ما هي ومن اين انت والى اين تذهب ؟ المجرد كونك تجهل سر الحياة تحسب الحياة سخرية ؟ ألأن عقلك البشري لا يزال قاصراً عن ادراك عظمة هذا الكون تحكم عَلَى الكون بالفناء ؟ انت كالبدوي الذي وجد مرة ساعة ولم يكن رأى مثلها في حياته . فلما سمع تكتكتها ضرب بها الارض قائلاً — « فيها قرد .» لو عرف البدوي قيمة الساعة لفرح بما لقيه . ولو عرفت انت قيمة الحياة لغبطت نفسك انك حي بين احياء . ألا تشرب من ماء نبع الا اذا عرفت اين يبتدىء واين ينتهي ؟ تصور سمكة خرجت من البحر الى الشاطىء وجلست هناك تسأل نفسها — « ما هو الماء ومن اين اتى وما نفعه ؟ » وقررت في عقلها ان لا ترجع الى البحر حتى تجيب هذه السوءالات . أوَليس هذا ما تفعله انت ؟ تسحب نفسك من الحياة وترفض ان ترجع اليها حتى تدرك كنهها . وما انت بالنسبة الى الحياة الا كالسمكة بالنسبة الى البحر . اذا احببت ان تدرك سر الحياة فعش . وان

عشت فلا تسأل ذاتك — ما هي الحياة ؟ ولا يعيش الا من أدغمت نفسه في نفس العالم العمومية ، فشعر انه جزء من الكل · لو سألتني عن سبب زهدك لقلت — لانك عشت الى الان لنفسك ؛ ولم تفكر الا بنفسك ، لذلك تعتب اذ وجدت نفسك الصغيرة سائرة ضد نفس اكبر منها بربوات — ضد نفس العالم · فلو تمددت نفسك حتى عانقت النفس العالمية لسهل الحمل عليك ولوجدت انك اذا خدمت الغير تكون تخدم نفسك · ألم تخبرني الان عن اختك وعريسها ؟ ألم تقل لي انه يشق عليك ان تراها تذهب ضحية بساطتها واستبداد امك وفريسة « لتيس مركب » لا غاية له فيها سوى مالها ؟ لماذا ترضخ لارادة امك ؟ أوَليس لانك تخاف معارضتها ولا تأنس من نفسك قوة لمعارضة احد · ألا تخجل ان تجلس ساكتاً وامامك مستقبل اختك ، بل حياتها كلها ، تقدم محرقة عَلَى مذبح التقاليد والغرور ؟ امك ترغب بابن العركوش لانه بك · وتحسبه من مقامها · وانت تنهزم من امام البك وامام امك لان لا قوة لك عَلَى مقاومة احد · انت تخشى الفشل لذلك اقول انك جبان · وفي هذه البلاد الاف كاختك يحتجنَ الى منقذ يخلصهنَّ من جور امهات كامك وبلادة رجال كابن العركوش ويرفع الغشاء عن اعينهنَّ ليرينَ العالم كما هو ويدركنَ مقامهن وحقوقهن في العالم · فهل لا شفقة ··· (يُفتح الباب فجأة وتدخل ام الياس وبعدها زينة)

ام الياس — اوف · اوف · هاالشوب (تروح بمروحة في يدها) شي بيسلق · (الى الياس) كيف اجاك قعود انت طول النهار بالبيت ؟ — يمّا

يعدك بتشارع ربنا ؟ (مشيرة الى داود) مين حضرة الشاب ؟

الياس — هذا صديقي — المعلم داود يا امي · هو يعلم في مدرسة عين الدلبة الداخلية ·

أم الياس — (بكبرياء) والنعم ·

داود — لي الشرف يا خالتي ام الياس ·

الياس — (مشيراً الى زينة) وهذه اختي زينة يا داود ·

داود — لي الشرف يا ست زينة ·

أم الياس — (بعد ان تجلس) مين حضرة الشاب ؟ (تروح)

الياس — قد قلت لكِ ان اسمه المعلم داود ·

ام الياس — (بحمق) فهمت انه المعلم داود · لكن فكري — مِينو ؟ شو دينه — روم ؟ موراني ؟

داود — انا ، يا خالتي ، لا روم ولا ماروني

أم الياس — بلا دين لكن — هرطوقي · آ ؟ الرحمه والستره منك يا ربي · شو هاالجيل الكافر !

داود — انا لست كافراً يا خالتي ام الياس · انا اومن بالله · ويسوع المسيح من كل قلبي ·

ام الياس — لكن روم ! ليش بتقول لا روم ولا موراني ؟

داود — انا روم اذا شئتِ وماروني ، حتى ومسلم ويهودي فيوقت واحد

أم الياس — يي · نجينا يا ربي ! مسلم ويهودي ! لكن انت من اللي

صلبوا المسيح ؟

داود — اريد ان اقول اني اعتبر يسوع وموسى ومحمداً عَلَى السواء · في العالم اله واحد — وهو اله الجميع ليس مسيحياً ولا مسلماً ولا يهودياً — بل هو مجرد عن الاديان ، وهو واحد لا يتغير في كل الاحوال والازمان · انما كل منا يفهمه بقدر ادراكه · فيظن ان اله هو الاله الحقيقي وان اله سواه اله كاذب ·

ام الياس — بحاكيك بالشرق بتجاوبني بالغرب · (تروح وقد فرغ صبرها) وين بتصلي؟ — بكنيسة الروم يما الموراني يما البسترند يما بالجامع ؟

داود — انا اصلي في قلبي يا خالتي — لا في كنيسة الروم ولا الموارنة ولا البروتستانت ولا في الجامع ·

ام الياس — شو لنا بالكنايس لكن اذا كنا بدنا نصلي بقلوبنا ؟ شو لنا بالخوارنة والمطارنة ؟

داود — من لا يقدر ان يعبد ربه الا في الكنيسة فليذهب الى الكنيسة · ومن لا يقدر ان يخاطب خالقه سوى بلسان شماس او خوري او مطران او بطريرك فليتبع خوريه ومطرانه وبطريركه — انا اراني في غنى عن كل ذلك ·

ام الياس — وبتقول انك بتعتقد بالمسيح كمان !

داود — نعم ·

ام لياس — وعالكنيسة ما بتروح · وخوري مطران ما بتعرف ؟

داود — نعم ·

ام الياس — وبعدك بتقول انك مسيحي ؟

داود — نعم ·

ام الياس — (وقد فرغ صبرها) يي · نجينا يا ربي ! (تنهض بحمق وتخرج من الباب الى اليسار · سكوت · ام الياس ترجع بعد قليل · الى داود) شايف هاالصورة ؟ (تشير الى صورة زوجها) هي صورة المرحوم بطرس بيك · قتل بزمانه عشرين درزي بهاالسيف هادا وعشر متاولي بهاالسيف هاد · الباشا كان يحسب له حساب · كان يفرق عقل عاالدني كلها · لا مسلم ولا درزي ما كان يسترجي يتنفس بوجهه · مع هذا كله بحياتي وابد زماني ما شفته يوم حد قعد بالبيت وما راح عاالكنيسة ···

الياس — (يقاطعها) انا قد اخبرته عن ذاك يا امي ·

ام الياس — خبرته ؟ خبرته عن خالك شاهين والكل ؟ هاداك كان وحده يهز الارض · وحده قتل اربعين كردي بخنجره · شايف هاالعده وهاالرمح ؟ (تشير اليهما على الحائط) ···

الياس — (يقاطعها) قد اخبرته عن خالي شاهين كذلك يا امي ·

ام الياس — الله ينجينا شو هاالجيل الكافر ! (الى داود) ابني · بدك اكثر من ابني ؟ ما بيروح عا لكنيسة الا بألف عصا · اليوم عاندني وعاندني وكسر كلمتي وما راح · مثل ما يكون بطرس بيك سماحه مش بيه · لكن خليل — رضا قلبي عليه — بيروح عاالكنيسة كل عيد وكل حد (تخرج)

« البقية تأتي »